

الشيخ مصطفى المتباليه في المسيح

جورجيو بابائناسوبولو

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

هذه قصة حقيقية جرت في التسعينيات من القرن العشرين، تأتي ضمن مجموعة أوسع هدفها نشر أخبار الروميين المُتخفّين (Κρυπτορωμιοί)، أي الروميين الذين تخلفوا عن الانتقال إلى اليونان من البنطس أثناء التبادل بين البلدين في ١٩٢٢-١٩٢٣. هناك مجموعة كبيرة من الروايات والتقارير التي كتبها أو جمعها أشخاص يونانيون أو أميركيون من أصول بنطية قاموا بزيارة البنطس بعد الانفتاح البسيط الذي أظهرته تركيا في أواخر الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي. فقد وجدوا مجموعات كبيرة من الروميين الذين بعد ١٩٢٣ عاشوا كأترك يخفون إيمانهم في قلوبهم. يتزايد اليوم عدد الدراسات التي تُظهر أن العلويين الأتراك (Alevi) والذين يُقدَّر عددهم بما يقارب العشرين مليوناً أي ٢٥% من مجمل الأتراك، هم في غالبيتهم روميون أخفوا إيمانهم الحقيقي خوفاً من الاضطهاد وتجنباً للاستشهاد، وهذا ما يفسر كثافة المظاهر المشتركة مع المسيحيين في أعيادهم، كاستعمال النبيذ في خدمة يسئونها قداساً، والتعبيد لأعياد القديسين المسيحيين وما إلى ذلك. جديد بالذكر أن هناك تزايداً في عدد الذين يعودون منهم إلى المسيحية بعد انتشار وسائل التواصل الاجتماعي.†

هدف آخر أردناه هو لفت نظر الشباب المسيحي في لبنان وسوريا، المتهافت على السفارات أو على الارتقاء في البحر للانتقال إلى اضطهاد من نوع آخر، إلى أنه قد يكون للرب خطة أخرى غير الخروج من هذه الأرض، فعلينا أن نسعى لمعرفة [أسرة التراث الأرثوذكسي].

كنا نريد زيارة دير يوحنا السابق في فازيلونوس [١]. كان اليوم السابق متعباً ومليئاً بالتنقلات، خاصة بالنسبة للأب كيرلس. اعتقدت أنه سيتأخر عن الفطور. لكنني وجدته ينتظرنني.

- أبتي، أرى أنك لم تتأخر عن الفطور.

- هكذا تعلمت، أجب.

- لذلك سوف تقيم السحريّة أيضاً.

- بالطبع، لقد استرجعت أنفاسي العقلية، قال لي بابتسامة.

"الذئاب الرمادية" [٢] كانوا أيضاً على الموعد... عندما رأيتهم يلتقطون الصور لنا مجدداً في الصباح، شعرت بالتوتر. هممت بالنهوض لأذهب وأطلب منهم أن يوقفوا حرب الأعصاب التي يمارسونها علينا، لكن الأب كيرلس أوقفني قائلاً:

- اجلس. هذا ما يريدونه. أن يضايقونا، فنذهب للتحدث معهم، فيتسببون في حادثة لإيصالنا إلى الشرطة، حتى نعاني. لن نرد عليهم. نحن نبقى هادئين. هم يقومون بعملهم ونحن نقوم بعملنا...

وصل إبراهيم [السائق: المترجم] أيضاً في الوقت المحدد وانطلقنا. في الطريق، أخبرني الأب كيرلس بضع كلمات عن دير فازيلونوس:

- الديز أبعد قليلاً عن طرابزون من ديزي سوميلا وبارسيترويتا [٣] وإلى غربها. تُسمى المنطقة زبولون أو فازيلون، وهذا الديز هو الأقدم في البنطس. اشتهر خلال فترة إمبراطورية طرابزون [٤]. اليوم هو أيضاً كومة من الأنقاض.

امتزجت كلماته الأخيرة بدموع الانفعال مما جعل عينيّه تلمعان. ثم قال لي: يا أخي، خذ الأمور بسهولة. لكن كان عقلي قد طار مجدداً مما كان لنا وما فقدناه، وما بقي بين أيدينا... منذ تلك اللحظة ساد الصمت في السيارة. لقد سيطرت علينا ذكرى المجد الذي عرفته البنطس وأديارها والفكر المرعب الذي دمّرها، إلى أن وصلنا إلى وجهتنا.

ترجّلنا من السيارة وبدأنا الصعود نحو الدير. كان طريقاً ترابياً واسعاً. تقدّم غلام شرطيّ بِشَارَةِ حمراء وأوقف سيارتنا. سأل إبراهيم باللغة التركية مَنْ نكون وإلى أين نذهب أخبره، فأجاب [الشرطي] أنه لأسباب تتعلق بسلامتنا، يجب أن تتوقف السيارة عند هذه النقطة. أخبره إبراهيم أن الطريق سالك وآمن لعدة كيلومترات أخرى، لكنه كان مصراً.

قررنا المتابعة سيراً على الأقدام ومكث إبراهيم في السيارة. كان رذاذ البَرَد والرياح الشمالية يلفحان جسدنا، وكان علينا أن نتسلّق لمدة ساعة ونصف تقريباً. لكننا كنا مصمّمين على ألا يمنَعنا شيء عن هذا الحج. كنا نسير على طريق العربة. وسرعان ما مرّت بنا شاحنة عسكرية مليئة بالجنود. ثم مرّت بنا سيارة "الذئاب الرمادية". أخرج أحدهم نصف جسده العملاق من النافذة وكان يصوّرنا. عند نهاية الطريق، كان يبدأ المسار المنحدر. هناك توقّفت الشاحنة العسكرية وأفرغت مَنْ فيها. كما ذهب عناصر "الذئاب الرمادية". اجتزناهم على مسافة قريبة. - لا تلتفت. قال لي الأب كيرلس.

لم أقاوم وألقيت نظرة خاطفة. رأيتهم يمازحون بعضهم البعض حول الفوضى التي سببها لنا... سرعان ما فهمت لماذا لم يتبعنا "الذئاب الرمادية". كانت المرحلة الأخيرة من التسلق خطيرة للغاية. على مسافة قريبة من الدير، كان علينا عبور انتفاخ صخري ضيق زلق للغاية من المطر، ويقع على منحدرٍ بعمقٍ مئات الأمتار من كلا الجانبين. لم نتردد. رسمنا إشارة صليبيّنا، ولم ننظر يمنة ولا يسرة، بل ركّزنا نظرنا مباشرة على الدير ومرزنا. بالقرب من المدخل، اصطف الشرطيون وكانوا جميعاً يرتدون شارة حمراء، وأيديهم على زناد سلاحهم الآلي. اقترب منا قائدهم وألقى تحية عسكرية لنا وطلب منا جوازات سفرنا. أعطيناها له. لحسن الحظ، في ذلك الوقت توقّف المطر. نظر إليهما لضع دقائق ثم سألنا:

- يونان؟

- Greek، أجابه الأب كيرلس. قال لنا بلغة إنجليزية ركيكة: لا صورة، لا صلاة. نعم؟

- حسناً، أجبنا.

أعاد لنا جوازات سفرنا وتوجهنا نحو أنقاض الدير برفقة الحراس. كنا في وسط الأنقاض تقريباً مُحاطين بهم. قال الأب كيرلس: نجلس بصمتٍ ونُصلي. دغنا نرى قدرتهم على التحمل. لقد كان محقاً. في مرحلة ما، نهضوا وغادروا أزواجاً. لقد اكتملت مهمتهم وأظهروا لنا أن لهم السيادة وأنا تحت السيطرة وغادروا. اندلع الأب كيرلس. صنع تزياسجيون لأرواح الرهبان الذين عاشوا في دير فازيلونوس ثم رتل بصوت عالٍ 'أيُّ إلهٍ عظيمٍ مثل إلها...! طروبارية الغطاس، 'إني أنا عبدك...'. بقينا لفترة في البرد القارس. فكرنا، صلينا، تذكّرنا الأديرة الثلاثة وروابطها مع البنطيين. كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر وكان المكان مظليماً بسحابة سوداء كانت على ارتفاع عشرات الأمتار فوقنا. قال الأب كيرلس بأن نذهب. عبزنا مرةً أخرى واتجهنا إلى أسفل التل. كان النزول أكثر سهولةً مع رؤية أفضل للمشهد. كانت المنطقة بريّة، فيها الكثير من الصخور ولكن أيضاً نباتاتٍ مورقة. كنا ننزلُ بلا مبالاة، بأفكار حلوة من الزيارة، عندما التقينا رجلاً عجوزاً غريب المظهر عند الحافة. كان يرتدي ملابس قديمة ممزقة، وجوارب صوفية سميكة وقبّاباً في قدميه، وله لحية بيضاء طويلة مليئة بالتجاعيد، وكان ضامراً كهيكلي عظمي. فوجئنا به. مشى نحونا وركبناه مثنيتان، وكأنه لا يريد أن يُرى من بعيد.

- أبونا؟ سأل الأب كيرلس بلغة يونانية طلاقة.

- أبونا!... نعم أبونا. من أنت أيها الشيخ؟

- الأتراك يرونني كواحد منهم، ينادونني 'مصطفى' ويعتقدون أنني مجنون. لكن أنا رومي قديم. وضعني والداي في هذا الدير. أطلقوا علي اسم يوحنا. لأكثر من سبعين عاماً عشت في كوخ أسفل الطريق، على منحدر شديد الانحدار. لقد وهبني الله أذناً طيبةً والمكان هادئاً جداً هنا، لذا أعرف متى تصعد السيارات إلى الدير. كما أنني التقط صوت الحجّ السائرين وأشكر الله أن الدير لم يمُث في ذكريات الروم. نظر مصطفى يوحنا في عيني الأب كيرلس. وسأل: ما اسمك؟

- اسمي كيرلو وصديقي جورجيو. نحن من اليونان وأتينا للحج إلى أديرة البنطس. كيف تعيش هنا؟ ألم يسمع الأتراك عنك كل هذه السنوات؟

- يعرفني الأتراك والروميون المتخفون ويحضرون لي الطعام والزيت. إنهم يعرفون أنني في البرية ولا أظهر لهم. يتركون الأشياء على صخرة معينة، تحت الطريق، ويغادرون. وبحركة حاسمة قال لنا: لنذهب إلى كوشي، لا أحد يقترب من هناك وسأخبركما أكثر.

ذهبنا إلى منحدر مشياً على صخور بينها نباتات كثيفة. رأينا الصخرة التي إستحدثت يوحنا فجوة في رأسها وهناك يترك المَعْتَنون به صدقاتهم. كان الكوخ عبارة عن غرفة مفردة ذات أرضية ترابية وبلاط قديم للغاية يرشخ من بعض أجزائه. كل شيء بالداخل كان خشبياً مصنوعاً بيديه: طاولة وكراسي وسرير. أواني المطبخ المعدنية المسوّدة، موقد الحطب ومصباح الزيت. أما الباب الأمامي، فهو ألواح مربوطة ببعضها البعض، تم إغلاقها بقضيب خشبي. كوخ خشبي ضيق للمرحاض ومزيد من مياه الغرغرة من نبع جبلي. عندما ذهبنا

للجلوس، أمسك الشيخ بكتف الأب كيرلس وقال له: أولاً تباركني، تتقبل اعترافي، تعطيني الحل، ثم تجلس. عمري أكثر من تسعين عاماً وأريد أن أستعد للمسيح والقديس يوحنا. ذهب الاثنان إلى ركن، جثا يوحنا على ركبتيه وكان يبكي ويتحدث إلى الأب. في النهاية أقامه وباركه وأعطاه الحل. جاء إلي وجلسنا نحن الاثنان على المقعدين الموجودين هناك، جلس الشيخ على سريره. وبدأ يروي لنا قصته.

- اقول لك مجدداً أن عمري أكثر من تسعين عاماً. قريباً سأكون بالقرب من الرب. كنت في الثامنة عشرة من عمري كراهب مبتدئ عندما عشت مأساة روم البنطس كاملة. لقد عشت خيانة البلاشفة، وتخلى الحلفاء، وذبح الآلاف من اليونانيين. لقد عانيت من قتل شعبي. أنا شخصياً هربت من المذبحة، لكنني لم أرغب في الابتعاد عن الدير، ومنذ ذلك الحين وأنا أتجول مثل الوحش في هذه الأجزاء.

لقد قرأت عن المتباليين للمسيح ففكرت أنني سأكون متبالياً. ارتديت ملابس تركية وعشت حياة كالجحيم. إذا اقترب مني شخص ما أهرط بحركات مجنونة في الغابة. أعطاني أحدهم اسم مصطفى الذي صار اسمي. لذا فالأتراك يخطئون بي وكأنني تركي. لم يطلب مني أبداً الذهاب إلى اللجوء المجنون، ولم يطلب مني أبداً إبراز بطاقة هوية. لم أكن سوى مجنون بالنسبة لهم. بالنسبة لي، كان المسيح والقديس يوحنا يحفظانني، إذ لم يريد أن أتترك ديزه وحيداً. لذلك، كل هذه السبعين عاماً أعيش كمسيحي وأدعهم يدعونني مصطفى. باركني الرب. الذي ليس خراباً. فيه المسيح، ومريم العذراء، والقديس يوحنا، والملائكة الذين يحرسونه وأنا الذي أخدمه سراً...

ما سمعناه تركنا عاجزين عن الكلام. كانت فكري الأولى 'ليحيا الرب'. مصطفى المجنون بالنسبة للأتراك، كان في الواقع يوحنا المتبالي للمسيح. واستمرت البركة التي نلقاها، إذ قال لنا يوحنا: تعالينا معي. تبعناه خارج الكوخ. كان في الفسحة مبنى حجري قديم يشبه الكنيسة. تم إغلاق المدخل بواسطة بالات القيش وفروع الشجر. ساعدناه على التخلص منها. مشينا ويا إلهي ما رأيناها. كنيسة صغيرة مضاءة جيداً، مع شمعدانها القديم وأيقوناتها القديمة التالفة من عتبات الأتراك، ولكن التي يظهر جمالها. المذبح الرخامي المقدس محفوظاً أيضاً. قبل الصليب على الحائط وقال لنا: حفظني الرب حياً وحماني من الكفار لحراستها ما دمنا على قيد الحياة. الأتراك المجانين، جعلوا من الكنيسة مخزناً للتبن. إنها كنيسة عادية، حيث أصلي وأجد الراحة والشجاعة.

مع كلماته الأخيرة سجد ورسم صليبه. لم نتمكن من احتواء حماسنا. تركنا دموعنا الغزيرة تتدحرج على الأرضية الحجرية. كنا في حضرة رجل قديس، قديس سيموث دون أن يعرف أحد من هو وبماذا يؤمن. سيموث دون أن يعرف أحد عن جهاده الذي دام سبعين عاماً متظاهراً بالجنون من أجل أن يكون بالقرب من كنيسة دير فيزيليوس وصيانتته.

نسبنا أنفسنا، فقد كنا نندوئ مسبقاً الشركة مع القديسين في واقع حياتنا. لكن يوحنا فكر فينا، وفكر في التزاماتنا وأراد أن يحمينا، قال لنا بلطف: حان الوقت للذهاب.

أردنا البقاء بالقرب منه لفترة أطول، لكننا علمنا أنه كان على حق. لقد فهم وقال لنا بنفس الحلاوة: إنطلقا، لأنهم سيبدأون في التفكير في أن شيئاً ما حدث لكما وسيتحركون للبحث عنكما. أدركنا أنه كان علينا تركه والرحيل. جئنا على ركبنا لنقبل أطراف قدميه، لكنه لم يسمح لنا بذلك. عاد وقال لنا: اذهب، ومن الآن فصاعداً نكون متّحدين في الصلاة. كانت قلوبنا مفعمةً بفرح لا يوصف وقد نسينا كل اهتماماتنا. لكن بعد قليل وصلنا إلى السيارة فإذ بإبراهيم الذي كان ينتظرنا يتنهّد بارتياح: أخيراً أتيتما. بدأ الأطفال (ما يعني ضمناً الذئاب الرمادية) بالشعور بالجوع. من الجيد أنهم مضوا إلى هناك على عجل إذ تعبوا من البحث عنكما. - لا بأس، قلنا له. يريدون القيام بالعمل بأنفسهم. بالنسبة لنا، من الأفضل أن لا يكونوا يراقبوننا وألا يكونوا متشبثين.

توقّف الحديث عند هذا الحد. سألتنا إبراهيم عما سنأكله في المساء. قلنا له أيّ شيء موجود في الفندق أو في مكان قريب. كنا متعبين، لكننا كنا ممتلئين أيضاً. كيف لنا أن نشرح له ما هو الطعام الجيد!!!

[١] يقع دير فازيلون (باليونانية: Μονή Βαζελώνος Vazelonos) في البنطس، منطقة البحر الأسود في تركيا. تمّ بناؤه عام ٢٧٠، على بعد حوالي ٤٠ كم جنوب طرابزون بأمر من يوستينيانوس الأول. تم تجديده عدة مرات حتى القرن العشرين. كان الدير مركزاً للحياة الأرثوذكسية اليونانية في منطقة ماتزوكا وذا تأثير كبير على القرى المجاورة. يتميز بلوحات جدارية تصوّر الجنة والنار والدينونة الأخيرة. تعرض للكثير من الهجمات عبر تاريخه من زمن الفرس الساسانيين إلى الحرب العالمية الأولى حين هاجمته القوات التركية. أُحلي في عام ١٩٢٣ بعد التبادل السكاني بين اليونان وتركيا. وقد تعرّض منذ حينه لأعمال ساهمت في تدهور حاله. للدير أرشيف مهم لم يتبقّ منه سوى بعض الوثائق في متحف لينينغراد، بينما تحتفظ الجمعية التاريخية التركية ببعض الآخر. استخدم المؤرخون هذه الوثائق للتعرف على الحياة في الإمبراطورية البيزنطية وإمبراطورية طرابزون. تعود بعض أشكال الاستصلاح إلى الدير من ضمن خطة الدولة التركية لدعم السياحة الدينية.

[٢] تنظيم الذئاب الرمادية (بالتركية: Ülkü Ocakları Eğitim ve Kültür Vakfı وبالإنجليزية: Grey Wolves) ويسمى أيضاً "الشباب المثالي" وهو منظمة تركية يمينية متطرفة تشكلت في أواخر عام ١٩٦٠، وتعتبر الذراع المسلح غير الرسمي لحزب الحركة القومية، وقد سبق أن اتُهمت بالإرهاب. يركز التنظيم في أفكاره على: تفوق العرق التركي واستعادة أمجاده وتاريخه، السعي لتوحيد الشعوب التركية في دولة واحدة تمتد من البلقان إلى آسيا الوسطى، محاولة دمج الهوية التركية والدين الإسلامي في توليفة واحدة ما ينتج عنه معاداة القوميات الأخرى كالكرد واليونان والأرمن وباقي المجموعات الدينية كالمسيحيين واليهود.

[٣] يُعرّف اليوم بدير كوستول (بالتركية: Kuştlı Manastırı، اليونانية: Ιερά Μονή του Αγίου Γεωργίου، وهو في مقاطعة طرابزون، تركيا. تأسس في القرن الثامن وعرف الكثير من التغييرات، إلى أن أصبح في ١٥٠١ تابعاً للبطريرك المسكوني. أيضاً أُغلق في ١٩٢٣، إذ ظرد الرهبان وانتقلوا وأسسوا ديراً بنفس الاسم في في ناوسا في اليونان. اليوم الدير مهجور ولم يبق منه سوى قاعدة الكنيسة.

[٤] كانت إمبراطورية طرابزون واحدة من ثلاث ولايات خلفت الإمبراطورية البيزنطية. ازدهرت بين القرن الثالث عشر والقرن الخامس عشر وتغطي الزاوية الشمالية الشرقية من الأناضول (البنطس) وجنوب شبه جزيرة القرم. تشكلت هذه الإمبراطورية في عام ١٢٠٤ بمساعدة الملكة الجورجية تامار، بقيادة أليكسيوس كومنينوس قبل أسابيع قليلة من نهب القسطنطينية على يد الصليبيين. أعلن أليكسيوس في وقت لاحق نفسه إمبراطوراً وأقام نفسه في طرابزون كونه من نسل الإمبراطور المخلوع أندرونيكوس الأول كومنينوس، بوجه الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس الخامس دوкас. بعد أن أطاح الصليبيون في الحملة الصليبية الرابعة بالامبراطور البيزنطي وأقاموا الإمبراطورية اللاتينية، أصبحت إمبراطورية طرابزون واحدة من ثلاث ولايات بيزنطية إلى جانب إمبراطورية نيقية تحت حكم عائلة لاسكاريس. في عام ١٤٥٣ سقطت القسطنطينية بيد العثمانيين فيما استمرت طرابزون حتى عام ١٤٦١، إذ احتلها السلطان العثماني محمد الثاني بعد شهر من الحصار.

Source: Γιώργου Ν. Παπαθανασόπουλου. Γέροντας Μουσταφά, ο κατά Χριστό σαλός. Βημαορθοδοξίας. 12/07/2022. <https://www.vimaorthodoxias.gr/eipan/gerontas-moystafa-o-kata-christo-salos/>

† Νίκος Χειλαδάκης. Οι Αλεβίτες Πιο Κοντα Στην Ορθοδοξία Παρα Στο Ισλαμ. Πενταποσταγμα. https://www.pentapostagma.gr/arheio/6613_oi-alebites-pio-konta-stin-orthodoxia-para-sto-islam. Available in english: Alevis Feel Closer To Orthodox Christianity Than To Islam. Translated by John Sanidopoulos. Mystagogy Resource Center. 6/9/2013. johnsanidopoulos.com/2013/09/alawites-are-closer-to-orthodox.html See Also: Nick Chiladakis. The "lost Christians" of Asia Minor. Orthodox Outlet for Dogmatic Enquiries. 9/8/2012. http://www.oodegr.com/english/thriskies/Islam/lost_christians_asia_minor.htm



صورة حديثة لدير السابق في فازيلون